تأثير التنصير في مجتمع جبال النوبا

الأستاذ /نور الدين عوض الكريم بابكر

قسم الدعوة بكلية الدعوة والإعـــلام

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض

ملخص البحث:

تقع منطقة جبال النوبا في ولاية جنوب كردفان غرب جمهورية السودان، وهي منطقة تمتاز بمناخ السافانا الغني وتربته، وتكثر فيها السلاسل الجبلية المرتفعة، ونوبا هذا الإقليم لايمتون بصلة قربى إلى نوبة شمال السودان.

تحدثت عن مؤتمر عقد بمدينة كلورادو (أمريكا الشمالية) لتنصير المسلمين عام ١٩٧٨م ووضع خطة سرية لتنصير مسلمي العالم أجمع بمختلف الوسائل الحديثة الفعالة، وبينت أنه امتداد لمؤتمر زويمر عام ١٩٠٦م في القاهرة، فمؤتمر القدس عام ١٩٣٥م للتنصير الجماعي عن طريق استغلال الأزمات والمآسي التي تحل ببني البشر، ولهذا الغرض أنشئ معهد صمويل زويمر في شمال كاليفورنيا.

وأوضحت أن النشاط التنصيري قد بدأ في السودان عام ١٨٥٧م على يد المطران دانيال كمبوني الذي ركز على جبال النوبا فأحرز نجاحاً كبيراً شجعه على تأسيس مراكز صليبية فيها، وتبنى العديد من أبناء النوبا والدينكا وبناتها بالتنصير وإرسالهم إلى روما لتكملة تربيتهم الكهنوتية ليعودوا قساوسة عاملين.

وذكر الداعية أحمد ديدات أن نسبة النصارى في أفريقيا كانت ٣% في بداية قرننا هذا، ولكنها قفزت الآن لمعدل ٤٠%، ونتج عن ذلك تأثير سلبي في كافة نواحي الحياة، ففي النوبا اختلطت تقاليد النصرانية وعاداتها بالتعاليم الإسلامية وطمست حدود ومعالم الدين الإسلامي، وفرض النصراني لغته وثقافته في غياب التوعية الإسلامية تماماً.

كما أن الكنيسة قد استبدلت بالحرف العربي الحرف اللاتيني في اللغة السواحلية ولغة الهوسا الأفريقيتين ومنعت النوبا من استخدام العربية لتكتب لهجاتهم المحلية بالحروف اللاتينية. ونتيجة لصلف الفاتيكان قرر سامورا ميشيل رئيس موزمبيق عام ١٩٧٧م وضع حد نهائي لكل

المعتقدات الدينية وحظر تلقين الأطفال والكبار مبادئ النصرانية في العطلات العامة، وبذلك انتهت أسطورة أن الكنيسة وحدها هي التي تملك مفاتيح الخلاص في أفريقيا بسبب تعدد الأناجيل من ليبرالية ومادية واعتناق كثير منهم للدين الإسلامي الأمر الذي حدا بالبابا لتكثيف زياراته للقارة الأفريقية.

ثم بينت أن التنصير قد عمد إلى تعميق الهوة والكراهية في المجتمع النوباوي، وإثارة النعرات القبلية والعنصرية ضد السكان العرب والمسلمين.

وتحولت الكنيسة السودانية حالياً إلى مسلك سياسي محض ضد الإسلام واصفة مجتمعه بإباحة الرق متجاهلة مافعلته سفن البيض في السابق حينما كانت تتنافس في تصدير الرقيق الأفريقي الرخيص وتعميده وتسميته بأسماء أوربية قبيل شحنه لأوربا.

كل ذلك وغيره كثير بينته بالأدلة والبراهين في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

- المبحث الأول: التأثير العقيدي.
- المبحث الثاني: التأثير الثقافي.
- المبحث الثالث: التأثير الاجتماعي.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه المبين ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾(١) وهو القائل ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾(٢).

وأصلي وأسلم علي نبينا محمد بن عبدالله القائل "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل"(٣) . وبعد: فقد بات من المعلوم لكل مسلم يهتم بقضايا أمته تكالب الصليبية الحاقدة على ديار المسلمين، وما تجلبه عليهم بخيلها ورجلها لتنصيرهم، وإخراجهم من دينهم، لتكون أرض الإسلام - إذا تم لهم ذلك - خاضعة للصليب، وموطنا خصبًا، يمتصون خيراتها، وسوقًا رائجة لمنتجاتهم الاستهلاكية. وقد استغل النصارى ضعف كثير من بلاد المسلمين وفقرها وحاجتها للغذاء والكساء والدواء، فقدموه لهم باسم الصليب. كما استغلوا جهلهم في مناطق أخرى فقدموا لهم مايسمونه بالفن، وبما يحتويه من مجون وفساد عقدي وخلقي، بل لم يسلم منهم طائفة ممن ينتسبون إلى الثقافة والعلم الذين مسخت أفكارهم بنظريات الغرب، فحاربوا دينهم الإسلامي من حيث يشعرون أو لايشعرون، وكل ذلك خدمة للصليب مباشرة أو غير مباشرة.

وكانت بلاد النوبا في غرب السودان من المناطق الفقيرة التي تركزت فيها جهود الصليبيين أفراداً وحكومات منذ أكثر من مائة وأربعين عامًا، وأثرت في مجتمعها تأثيراً بالغاً من عدة نواحٍ. وقد ركزت هذه الدراسة - بعد تعريف موجز بتلك المنطقة- على تناول ثلاث منها بالتفصيل، وهي: التأثير العقدي، والتأثير الثقافي، والتأثير الاجتماعي.

التعريف بمنطقة جبال النوبا

تقع جبال النوبا في جنوب ولاية

كردفان بغربي السودان، وتنحصر بين خطي طول (٣٢° و ٢٩°) شرقاً، وخطي عرض (١٣° و ٣٠ / ١٠°) شمالاً، وتشترك في حدودها الجنوبية مع إقليم جنوبي السودان*، وتحدها من الشرق مديرية النيل الأبيض*، ومن الغرب إقليم دارفور*، وتضم مساحة قدرها (٣٠٠٠٠) ميلٍ مربع[٤]، وهذه المساحة بما فيها من السطح الجبلي تمتاز بتربة خصبة قابلة للإنتاج الزراعي والحيواني، و تتمتع بالعنصر البشري النشط، مما يجعلها قابلة للتوسع في مختلف أوجه الأنشطة الاقتصادية. كما تقع منطقة جبال النوبا ضمن مناخ السافانا الغنية، الأمر الذي يجعلها عرضة لهطول كمية كبيرة من الأمطار على جبالها، تتراوح بين ٦٠٠ - ٨٠٠ ملمتر في السنة، ويبدأ هطولها في وقت مبكر من العام وتستمر لمدة ستة أشهر[٥].

(*) لقد تم تغيير مسميات هذه الأقاليم والمسميات التي ذكرتها هي التي كانت سائدة أثناء إجراء هذا البحث.

ويشكل مظهر السطح في المنطقة الذي تكثر فيه الجبال قلاعا وكتلا صخرية غرانيتية بعضها يشكل جبالا منعزلة، وأحيانا تشاهد سلاسل جبلية متصلة، يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من (٣٥٠٠) قدم فوق سطح البحر كجبال تلودي وهيبان. وتتراوح تربتها بين تربة صلصالية مشققة، إلى تربة طينية مختلطة بالرمال.

وهناك مناطق سهلية تعرف باسم "البطحة"، وهي من أصلح الأراضي الزراعية، إذ تنمو فيها الحشائش والأشجار، وتتخللها كثير من الأودية التي تنحدر مياهها بقوة وسرعة من الجبال، كخور أبي حبل الذي يأتي من الجبال الشمالية، ويجري شرقا مسافة ١٩٠ ميلاً ليصب في النيل الأبيض، عند الجزيرة أبا، أو يغور في الرمال قبل المصب[٦].

وعدد جبالها تسعة وتسعون جبلاً تقريباً، تمتد جنوباً وشرقاً إلى النيل الأبيض وغرباً إلى دارفور، وتتخللها

كثير من الينابيع بجانب السهول التي تنمو فيها أشجار السنط والعرديب والتبلدي[٧].

ومنطقة جبال النوبا غنية بمواردها الزراعية، ويأخذ فصل الربيع فيها شكلاً واضحًا، وتعد أكثر ملاءمة للاستقرار من منطقة جنوب السودان التي كانت طبيعتها الاستوائية، ونباتاتها وأدغالها الكثيفة، ووحوشها الكثيرة حائلاً دون نشوء استقرار أو بناء حضارة[٨]. وتعد الطبيعة في غرب السودان "كردفان ودارفور" عنصرا مساعدًا للاستقرار، إذ توجد في جنوبها السافانا الغنية، وفي شمالها السافانا المتوسطة والفقيرة، وقد أدى هذا المناخ الطبيعي المتنوع، والأرض الغنية بالأودية والهضاب والأعشاب المتنوعة الصالحة للرعي إلى عمران تلك المناطق[٩].

أما علاقة نوبا الجبال بنوبة "الشمال" أو النوبيين الذين يقطنون شمال السودان فقد دار حولها كثير من النقاش والحوار بغية الوصول إلى مسلمات وحقائق واقعية، ولكن لم تستقر آراء الباحثين والدارسين لذلك الموضوع على رأي محدد، والراجح والله أعلم أنه لاعلاقة بين المجموعتين.

ويفرق البعض بين اسم الجماعتين فيطلقون كلمة "النوبا" على سكان الجبال ويجمعونها في كلمة "نوباويين" والمفرد "نوباوي"، ويطلقون لفظ "نوبة" بالتاء المربوطة على سكان الشمال، وتجمع "نوبيين" والمفرد منها "نوبي[١٠]".

المبحث الأول

التأثير العقدي

كان التنصير وتبديل عقائد المسلمين الغاية الأساسية للعمل التنصيري، وهذا هو السبب في تكالب الإرساليات على دول العالم الإسلامي وشعوبه، ومن بينها السودان لإغراء المسلمين بالدخول في النصرانية.

وهناك محاولات مستميتة يبذلها

النصارى لإخراج المسلمين من دينهم إلى النصرانية، كلما أمكن ذلك، حيث عبر عن ذلك الدكتور "هاريسون" بقوله: "إننا نريدهم مسيحيين"(١١). وقد وضح ذلك جليًا من خطط المنصرين في مؤتمر كلورادو الذي انعقد بأمريكا الشمالية عام ١٩٧٨م، باسم "مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين"، وقد انتهى المؤتمر بوضع خطة سرية لتنصير مسلمي العالم أجمع أينما كانوا(١٢).

وقد بحث المنصرون في هذا المؤتمر أساليبهم القديمة في التنصير التي وجدوا فيها ضعفًا وعجزًا وقصوراً عن استيعاب المسلمين في النصرانية. يقول آرثر. ف. كلاسر أحد المشاركين في هذا المؤتمر:

"إن التصريحات التي كان يطلقها المنصرون الأوائل مثل زويمر كافية لأن تخلق رد فعل قوياً لدى المسلم حتى يستعصي على التنصير(١٣)، ومع هذا تبقى خطط زويمر ومؤتمره الذي عقده في القاهرة عام ١٩٠٦م، ومؤتمر القدس ١٩٣٥م من أخطر المؤتمرات التي سبقت مؤتمر كلورادو.

إن الأساليب القديمة التي كان يبثها المنصرون - زويمر وغيره - قامت على عملية التنصير الفردي بمعني أن يتصل المنصر بالشخص الذي يريد تنصيره ويحاول اجتذابه بكافة الوسائل والسبل من أجل إدخاله في حظيرة النصرانية. لكنهم وجدوا أن هذه الطريقة عقيمة وقليلة الجدوى، فلذلك ثار المؤتمرون في كلورادو على مثل هذا الأسلوب داعين إلى أساليب ووسائل حديثة تتفق مع روح العصر، وإن أبرز الأساليب الجديدة في حركة التنصير الحديثة هي الأساليب التي ركز عليها مؤتمر كلورادو والمتمثلة في الدعوة إلى التنصير الجماعي مستغلين الأزمات وحالة عدم التوازن التي تحل ببني البشر، والظروف الخاصة التي تدعو إلى التحول الاجتماعي، وقد عبر عن ذلك أحد المؤتمرين وهو ديفيد. أ. فريزر

قائلاً: "ولكي يكون التحول فلا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها"(١٤).

هذا ما أراده المنصرون وخططوا له بدقة، وهو تنصير المسلمين في كل العالم، فقد كان من توصيات هذا المؤتمر إنشاء مركز يكون معهدًا للبحوث والتدريب على تنصير المسلمين، وقد أنشئ هذا المعهد بالفعل وسمي باسم "معهد صمويل زويمر" بشمال كاليفورنيا بأمريكا الشمالية(١٥)، أما إذا لم يكن فلا أقل من إخراجهم من الإسلام إلى الإلحاد وحالة الاضطراب العقدي، ولو لم يدخلوا النصرانية. وفي هذا يقول المنصر الأمريكي "صمويل زويمر" في أحد مؤتمرات التنصير مخاطبًا المؤتمرين: "أيها الأبطال والزملاء الذين كتب لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام. فشملتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس، لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن أداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق وإن كان يخيل إليَّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية فيه.

إنني أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا أحد ثلاثة:

١- إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه بالإسلام.

٢- أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوت يومه وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش.

٣- وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية، ليست إدخال المسلمين في المسيحية فإن هذا هداية لهم وتكريم،

وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله وبالتالي فلا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها.. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتهنئكم عليه المسيحية والمسيحيون جميعًا.

لقد سيطرنا منذ ثلث القرن التاسع عشر على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا فيها مكامن التبشير والكنائس، والجمعيات، والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية. ولقد أعددتم في بلاد الإسلام شبابًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية. وبالتالي جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار.. لا يهتم للعظائم، ويحب الراحة والكسل ولا يصرفه همه في دنياه إلا للشهوات، إن مهمتكم قد تمت على أكمل وجه وانتهيتم إلى خير النتائج"[١٦].

فعندما يئس المنصرون من إدخال المسلمين في النصرانية لجأوا إلى زعزعة عقائدهم وتشويه أفكارهم الدينية. وعلى الرغم من أننا قد نجد أعدادًا قليلة من الذين تنصروا رسميًا من المسلمين واعتنقوا النصرانية وتم تعميدهم، إننا نلحظ المئات من أبناء المسلمين الذين تأثروا بالفكر النصراني، والذين انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم، واعتنقوا النصرانية من طرف خفي بشكل من الأشكال.

وحينما بدأ المطران دانيال كمبوني نشاطه التنصيري في السودان عام ١٨٥٧م مع مجموعة من زملائه المنصرين، وركز جهوده في منطقة جبال النوبا، استطاع أن يحرز نجاحاً كبيرًا، وأسس عددًا من المراكز النصرانية، وتبعه عدد من أهل المنطقة من الذين استطاع أن يغير عقيدتهم ويدخلهم في عقيدة الثالوث. ونذكر أسماء بعض الذين تنصروا من

المواطنين على يد المطران كمبوني، وتدرجوا في مراتب النصرانية واستطاع أن يعد بعضهم ويؤهلهم في كل المجالات. ومن تلك الشخصيات على سبيل المثال:

١- الأب دانيال دينج سرور:

وهومن أبناء قبيلة "الدينكا" الذين يسكنون في منطقة "أبيي" التابعة لجنوب ولاية كردفان ناحية جبال النوبا، ويذكر أنه كان أحد الأرقاء الذين أخذوا من هذه المنطقة إلى "مدينة الأبيض"، وهناك استطاع أن يهرب من منزل سيده الذي اشتراه والتجأ إلى الإرسالية، فقبله كمبوني وأولاه عنايته وأدخله في النصرانية، وتعهده حتى عمده باسم "دانيال"، ثم أرسله إلى روما ليكمل تربيته الكهنوتية في معاهدها، وبعدها رسم قسًا ليصبح أول قس من الدينكا(١٧).

٢- الراهبة فورتاناتا كواشي:

وهي من بنات النوبا، ولدت في منطقة جبال النوبا نحو ١٨٤٠م. وفي عام ١٨٥١م استطاع المرسلون إدخالها الكنيسة عندما كانت في الخرطوم. ثم أرسلت إلى أوروبا للتعليم والتدريب. وتعمدت في مدينة فيرونا عام ١٨٥٤م، وعادت إلى مصر في سنة ١٨٦٧م لتنضم إلى معاهد المعلمين والمعلمات التي افتتحها دانيال كمبوني من أجل السودان. وعادت إلى البلاد في قافلة من المعلمين والمعلمات السودانيين قادها المطران دانيال كمبوني إلى الخرطوم عام ١٨٧٣م، وعملت معلمة في مدارس الإرسالية بالخرطوم ثم في جبال النوبا بالدلنج. وفي سنة ١٨٧٩م، طلبت أن تلتحق بدير راهبات كمبوني ونذرت نفسها للرهبنة سنة ١٨٨١م، وظلت تعمل في جبال النوبا. وفي سنة ١٨٨٢م، اعتقلت هي وبعض الراهبات الأخريات في "الأبيض" عند سقوطها في أيدي أنصار الثورة المهدية، ونقلت إلى أم درمان. وفي سنة ١٨٨٥م استطاعت أن تهرب من أم درمان إلى

مصر حيث ماتت هناك عام ١٨٨٩م[١٨].

٣- الراهبة بخيتة:

وهي من قبيلة الداجو التي تسكن في ولايتي دارفور وجنوب كردفان، تم إدخالها الكنيسة في الأبيض، وتنصرت على يد المطران كمبوني، وبعد أحداث الثورة المهدية غادرت بخيتة برفقة بعض الأسر الأجنبية إلى إيطاليا، وهناك تلقت المزيد من التعاليم الصليبية، وترهبت في عام ١٨٩٠م، وعملت مدرسة في مدارس الرهبنة في مدينة البندقية بإيطاليا نحو خمسين سنة، وتوفيت في سنة ١٩٤٦م. وتعد بخيتة من القديسات اللائي يتوقع أن يعلن أسماءهن البابا. وعلى هيكل كنيسة الأبيض اليوم تعلق صورة الراهبة بخيتة[١٩].

٤- كذلك تنصر طالب سوداني آخر تخرج في مدرسة إرسالية إفريقيا الوسطى واسمه" **اندريه شريف**" وكان هذا الطالب بعد أن نال قسطًا من الدراسة في الخرطوم رغب في دراسة الفلسفة واللاهوت فسافر إلى روما عبر الإسكندرية حيث توفى هناك قبل إتمام دراسته.

وتواصلت حركة النشاط التنصيري حتى عصرنا الحاضر الذي حدث فيه الكثير من حالات التنصر وسط الشباب والطلاب والنساء متأثرين بأفكار الكنيسة وعقائدها التي حلت محل العقيدة الإسلامية التي كانت في قلوبهم[٢٠].

وأما عن الوثنيين والملحدين ودخولهم في النصرانية فحدث ولا حرج، إذ إن الكنيسة تعمل وسطهم ليل نهار، حتى اعتنق النصرانية عدد كبير منهم. فقد نجحت الإرساليات النصرانية في تثبيت دعائم النصرانية في منطقة هيبان من جبال النوبا وسط الوثنيين حتى أصبحت نسبة النصارى في هذه المنطقة ٨٥% والمسلمون ٥% والبقية من السكان لا تزال على الوثنية[٢١].

وزيادة دخول الوثنيين في النصرانية في إفريقيا بصفة عامة أصبحت ظاهرة مضطردة في معظم أجزاء القارة

السوداء. يقول الشيخ أحمد ديدات[٢٢]: "وإذا نظرنا إلى الواقع الإفريقي نجد أن القارة السوداء كانت في بداية القرن العشرين نسبة النصارى بها ٣%، والآن عددهم يزيد عن ٤٠% من سكان القارة، ومخططهم المعلن هو أن تكون القارة الإفريقية نصرانية في نهاية القرن العشرين".

إن الإسلام في هذه المنطقة مهدد بالذوبان وسط هذا الركام من العقائد النصرانية والوثنية وغيرها، لعدم وجود إسلام قوي، فتختلط العادات والتقاليد المحلية والنصرانية مع التعاليم الإسلامية، كما يحدث في بعض المناسبات، مثل الدعوة للاحتفال بالكجور والأسبار(*) الوثنية تحت لافتة "الفلكلور" والفن الشعبي والموروث السوداني. وهذه إعادة للوثنية من أوسع أبوابها، ومن حيث لايشعر المسلم. وبهذه الطريقة لا يعرف المسلم حدود دينه ومعالمه. فنجد من المسلمين من يقول بأن النصارى أهل كتاب وليسوا بكفار، ونجد زواج النصراني بالمسلمة وزواج المسلم بالنصرانية وغيرها من مظاهر اختلاط الأمور والأديان، الأمر الذي يبين فداحة التأثير النصراني في عقول الأهالي وعقائدهم وخاصة العوام منهم.

إن المسلم في هذه المنطقة يتعرض للفتنة في دينه خلال احتفالات أعياد الميلاد الصليبية التي يظهر فيها الإسراف والبذخ من أزياء وأطعمة وهبات للنصارى فيفتن المسلم لفقره، وربما ارتد بعض النوباويين عن الإسلام بسبب الفقر والجوع. والفقراء من المسلمين يتلقون الدعم النصراني من الكنائس بينما يقف المسلمون مكتوفي الأيدي تجاه إخوانهم.

أما من لم يتنصر من المسلمين فلم يسلم من التشويش الفكري وبلبلة

(*) الكجور : طرق العلاج بالشعوذة والسحر.
والأسبار : جمع سبر وهو لفظ يدل على التشاؤم وله طقوس خاصة في جنوب السودان وغربها حيث القبائل الوثنية.

العقائد وذلك عن طريق شغلهم بالأفكار الغربية، وتشجيع العادات المحلية كالأسبار والكجور وغيرها من المظاهر الوثنية المضادة للإسلام. ودعم الكجور ماديًا ومعنويًا حتى يقوى ويعلو صوته على صوت الإسلام في المنطقة. وإيهام الأهالي بأن هذه العادات أفضل من الدين الإسلامي رغم أنها لم تكن منزلة من السماء.

هذه بعض الصور المختصرة لتأثير النشاط التنصيري في عقائد أهل المنطقة، ومعالمه البارزة التي ترسخت في أذهان الكثيرين، وتحتاج لعمل إسلامي جاد ومكثف لمقاومتها ومحوها.

المبحث الثاني
التأثير الثقافي

أثرت حركة التنصير تأثيرًا بالغًا في المجتمع الإسلامي، وفي هذه المنطقة خاصة - منطقة جبال النوبا - إذ ظهرت آثاره جلية في كافة نواحي الحياة في ذلك المجتمع: الثقافية، والتعليمية، والأخلاقية، والاجتماعية. وبذل المنصرون ومازالوا يبذلون كل ما في وسعهم وطاقتهم متخذين عدة وسائل وطرق لتحقيق أهدافهم وغاياتهم. فحاولوا استغلال الفقر والجهل والمرض المتفشي في المنطقة، ففتحوا الإرساليات ومدارس التبشير النصراني، ووضعوا لها خطة مبرمجة في إطار خطة يراد لها النجاح ثم الاستمرار والاستقرار بعده. فبدأوا نشاطهم التنصيري في نمط متسلسل محكم، يبدأ من تحديد الهدف بدقة، ثم وضع خطة فكرية واضحة لتحقيقه، ثم إخراجها إلى حيز التنفيذ بالوسائل المختلفة.

إن نجاح حركة الإرساليات النصرانية في إفريقيا في القرن التاسع عشر، كان بصورة ما خداعًا ونجاحًا مزيفًا، إذ تم وسط أقوام متخلفين وعلى مستوى متدن من الثقافة، وفي ظل غياب إسلامي مفزع. وحينما جاء المنصرون الأجانب بثقافاتهم الغربية، فإنهم - أي الإفريقيين - غلبوا على أمرهم نتيجة

للتفوق الثقافي التنصيري، مما حدا بهم لنبذ ثقافتهم والدخول في طاعة العهد الجديد. لأن المغلوب بصورة عامة مولع بتقليد الغالب، والمشي في ركابه، والإعجاب بثقافته ولغته. وقد كان من المتعذر على القبائل سواء في جبال النوبا أو جنوب السودان أو غيرها من مناطق الوجود الأفريقي أن تشق الحجب لتصل إلى أن هناك حضارة أصلية مبدعة غير الحضارة الغربية.

وكما حدث هذا التأثير في إفريقيا ولسكان منطقة جبال النوبا في عصرنا الحاضر، فقد حدث في الأندلس في أيام عز المسلمين ومجدهم. فقد كان الأسبان في أيام عبدالرحمن الداخل قد أقبلوا على لغة العرب والمسلمين وثقافتهم وأدبهم، وتركوا فلسفة النصرانية وكتبها، حتى جعل الغيورون منهم يتباكون على قومهم، لأنهم تركوا لغتهم اللاتينية وتبعوا العرب في ثقافتهم وأدبهم[٢٣].

ولعل هذا الزهو والكبرياء الناتج من التفوق المادي، مثّل طاقة دافعة متعالية، ظهرت في الكيفية التي تم بها كسب الأفراد والقبائل والمجموعات للنصرانية، إذ لم يراع المنصرون في تجنيدهم الأهالي للنصرانية أي مظهر من مظاهر الاحترام لشخصية الإنسان وكرامته وخاصة الطفل الصغير الذي ذهب إلى المدرسة ليتعلم، ولكي يكون إنسانًا مفيدًا لنفسه ولمجتمعه. ولكنهم نظروا إليه خامة صالحة فقط كي تلحق بالكنيسة. وهذا الطفل القاصر، غير مؤهل لاتخاذ ما يراه صالحًا لنفسه، وعليه فإن محاصرة هذا الطفل، وإخضاعه لعمليات غسل الدماغ في الفصول الدراسية لتنصيره، وصهر سلوكه في اتجاه معين، والتحكم في نمو ذهنه وتطوره العقلي، يرقى لمرتبة العبث والاستهتار بالطفولة والدين. لقد لجأ المنصرون إلى كل وسيلة للزج بالأهالي في النصرانية، واستعملوا كل الوسائل

المتاحة من إغراءات مادية، واستغلوا حاجتهم للملبس فكسوهم بالملابس المزينة بالصليب، وأرغموهم على اتخاذ دروب النصرانية حتى في ظروف المجاعات والأوبئة، بسلطان الطعام والقهر النفسي والعقلي.

لقد تمثل القهر الثقافي والفكري، والإرهاب العقلي في تنفير الأهالي البسطاء من الدين الإسلامي، الذي هو دين الفطرة، والذي هو مجالهم الطبيعي للتكامل ومتابعة الترقي. لقد شن المنصرون حملة جائرة ظالمة ضد الإسلام، وعمدوا إلى تشويه مقاصده، وربطوه بكل قبيح. فالشبهات التي تثيرها الكنيسة ضد الإسلام أدت إلى فهم أعداد كبيرة من الناس للإسلام بأنه دين القهر والظلم والعبودية والرق، فكان همُّ المنصرين الأكبر هو إبعاد هؤلاء الناس عن اللغة العربية والثقافة الإسلامية لأنهما يبصران الفرد بالدين الإسلامي ويرشدانه إلى فهم حقيقة سماحة الإسلام. وكان المنصرون يغرسون فيهم أن الرقي والتقدم لا يكون إلا بالثقافة الغربية. فكان لهذا أثره الواضح ومعالمه البارزة في المجتمع، إذ تغيرت الأسماء إلى أسماء غربية أعجمية مثل فيليب، ويوحنا، وبولس، وكالو وغيرها. كما سادت معظم العادات الغربية في الملبس والمأكل والمشرب، وأصبح تقليدها هو الرقي والحضارة. وكذلك تعلم اللغة الإنجليزية والميل الشديد إلى دراستها والتعمق فيها، وتفضيلها على اللغة العربية. وهذه لا شك بعيدة كل البعد عن الثقافة الإسلامية، وبالتالي أدى هذا إلى عزل الشباب النوباوي، عن واقعه السوداني، وعدم الاندماج مع بني وطنه والتمسك بعاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم. وحتى القصص المتداولة بين الأهالي، أصبحت تدور حول خلاص العرقية النوباوية عن طريق النصرانية.

إن الكنيسة مسؤولة عن كل الخراب والدمار النفسي والفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي أصاب هذه المجتمعات. فالمنصرون حينما قدموا

إلى السودان استخدموا بالدرجة الأولى التعليم، لنشر مبادئهم وتعميق مفاهيمهم لدى السكان المحليين، وكان التعليم عندهم وسيلة لا غاية في حد ذاته، وكما ذكر بعضهم عنه بأنه الطريق الذي يقود إلى المسيح(٢٤).

والتعليم قد يقود إلى البناء والتعمير والسلام، سلام النفس والسلام مع المجتمع والعالم. وقد يكون ضاراً ومدمرًا للفرد والمجتمع والعالم، وذلك بحسب نوعية التعليم ومقاصده. وواقع الصفوة النوباوية المتعلمة على أيدي النصارى اليوم يكشف أن التعليم الذي رضعوه قد عاد عليهم بالضرر والدمار، ويكشف عن مدى فشل التعليم الكنسي الذي تلقاه هؤلاء. لقد انتهت جهود المنصرين في السودان وخاصة في مناطق جبال النوبا وجنوب البلاد، إلى إعداد صفوة من المتعلمين المتنصرين الغرباء في وطنهم، يفقدون الهوية بقدر ما يفقدون الإحساس بالانتماء للأرض والأمة والثقافة والوطن. فالغربة تحيط بهم وتحاصرهم في اللسان والزمان والمكان والمظهر والمخبر، وقد صور المؤرخ الإنجليزي "توينبي" غربة "الاسم" بصورة سافرة في كتابه "بين النيجر والنيل" قائلاً: "على مدى جيلين تم استيعاب عدد من قبائل الشلك والدينكا في عداد الإنسان الحديث، وأحد هؤلاء كاتب شارك في إعداد كتاب صدر حديثًا باللغة الإنجليزية، عن مشكلة جنوب السودان، وقد تم تعميده ليصبح اسمه "وليم"(٢٥).

وقد جاء في إحدى الدراسات عن تاريخ التنصير في إفريقيا أعده الأستاذ عمار هلال، الأستاذ بمعهد العلوم الاجتماعية بالجزائر: "أن الإرساليات التنصيرية عمدت إلى خطة بالغة الخطورة تمثلت في إنشاء نخبة من الأفارقة الموالية للاستعمار الأوروبي فكرًا ودينًا وثقافةً ولغةً بشكل أدى إلى استئصال الشخصية الإفريقية منهم"(٢٦).

انظر، لقد أصبح هؤلاء مسخرة ومضحكة حتى من النصارى أنفسهم، أهل عقيدتهم وملتهم، لأنهم دروا أن هؤلاء انسلخوا من جلدتهم ومحوا معالم شخصيتهم فأصبحوا مسخًا مشوهًا غير واضح المعالم. إن أمثال هؤلاء قد فاجأتهم الصحوة الأوربية الهائلة، وهم في غفلة من أمرهم، وجاءهم الاحتلال ومن بين يديه ومن خلفه آثار حضارية فاتنة. وزاد الطين بلة أن كان المسلمون في فترة ركود حضاري وثقافي، وجمود اجتماعي، سببه الأول التفكك والتشرذم وعدم تطبيق الدين على المجتمع التطبيق الصحيح الذي يعصم الأمة ويوحد كلمتها، ويحفظها قوة لا يستهان بها. ولذلك كانوا هم الطرف الضعيف في هذا الصدام، وتبعًا لذلك كانت لديهم قابلية شديدة للتأثر وتشرب الأنماط الوافدة، ذات البريق الاجتماعي والثقافي، ومن هنا بدأت دورة التقليد والمحاكاة ومضاهاة الكفار الغربيين في كثير من عاداتهم وأحوالهم الفاسدة والانكباب على أشكال حياتهم وأساليبهم المظهرية.

ومن العناصر المؤثرة في المجتمع، والتي دأب الاستعمار على نشرها ومن خلفه جيوش المنصرين: الاختلاط - وهو وسيلة لنشر الأفكار والثقافة أخص من التقليد - الذي كان له أثره البالغ في المجتمع من حيث الأهداف والأخلاق والسلوك. وقد كثر اختلاط المسلمين بالكفار الأجانب من كل لون لكثرة الوافدين من هؤلاء الكفرة إلى بلاد المسلمين في ركاب جيوش الاحتلال أو من قبل البعثات والإرساليات التبشيرية، وقد تعددت أيضًا شعب هذا الاختلاط في الأعمال والوظائف والبيوت والأندية، وامتد إلى روابط الصداقة والحياة الأسرية والتزوج بالأجنبيات، أو الزمالة في أسفار الدراسة، وكان من أخطر وأخبث الأجواء التي تم فيها هذا الاختلاط، الجو الدراسي بمناهجه وبيئته الخاصة المكيفة تكييفًا مخططًا مرسومًا. و كان يشرف عليها الرهبان

والراهبات والمنصرون المحترفون. وقد هيأوا فيها للأطفال المسلمين مناخًا مزدوج التركيب من فلسفة الحياة الصليبية وألوان العادات والأخلاق الأوربية[٢٧].

إن الجامعات المختلفة التي أنشأها المستعمر في البلاد الإسلامية ما تزال إلى اليوم في أغلبها مختلطة، وتدرس بلغة المستعمر، وتنشر ثقافته وحضارته. وقد كان هذا الاختلاط في كثير من الأحيان مدعما بتخطيط ماكر، ليؤدي دوره الثقافي والتربوي الخطير، وليحقق التغيير بواسطة هذه الطبقة الجديدة التي تمثل قلب الأمة.

ومما يدل على ذلك مانجده في خطط اللورد "كرومر" معتمد الاحتلال البريطاني في كل من مصر والسودان، حيث يقترح في هذا الصدد: "أن يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهة النظر التي تبدي عطفًا معقولاً على المسلمين، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة لا عن طريق الحكومة". وكان يأمل من وراء ذلك أن تجد أجيال المسلمين القادمة من الحكمة وسعة الأفق - حسب تعبيره - ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص مع الأوربيين، الذين يعطفون عليهم حتى يستطيعوا متعاونين وضع مثل عليا جديدة، تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين الذي لم يعد صالحًا في هذا الزمان - حسب زعمه - للحكم والريادة[٢٨].

لقد صرف المنصرون جهودهم خلال نصف القرن المنصرم إلى نقض الإسلام ومحاربته، ومحاصرته، ومحاربة الثقافة الاسلامية واللغة العربية في المنطقة، وبث الثقافة الدينية الأوربية، أوبتعبير آخر "الصليبية المعاصرة". وعندما أخفق تلامذة المنصرين في مواصلة هذا المشروع التنصيري، لجأوا إلى شعار "عليّ وعلى أعدائي"، وظلوا لاهثين في محاولة يائسة لتحصين الثقافة الانعزالية التي أفرزها الاستعمار أثناء

احتلاله للبلاد، والتي فقدت كل مبررات البقاء بعد خروجه وزواله.

إن المأساة التي خلفتها الثقافة الغربية الكنسية لتغذية النزعة الاستهلاكية والتطلعات المادية التي أفرزتها في بيئة فقيرة تقوم على التكاتف والإيثار، لايمكن تصور أبعادها. لقد مسخت هذه الثقافة نفسية الإنسان النوباوي، وجعلتها أسيرة لتطلعات مادية يتعذر تحقيقها في المجتمعات الإفريقية المتواضعة، لأنها لا تناسب تلك المجتمعات ماديًا وروحيًا. وهكذا جعلت هذه الثقافة الفرد الإفريقي كالمنُبتّ لا أرضًا قطع ولاظهرًا أبقى.

إن الجيل الجديد في المنطقة جيل الحرب والتشتت والتيه يحس بالضياع وعدم الانتماء والفقر والجوع، جوع البدن وجوع الروح. وعلى الجيل النوباوي الجديد أن يتحمل مسئوليته في تصحيح مساره، وأن يعمل على إصلاح ما أفسدته الثقافة الكنسية، وأن يعيد بناء نفسه على أنقاض الهوة التي صنعها الحكم الأجنبي للبلاد وعملت على تعميقها الإرساليات النصرانية.

إن للثقافة التي بذرتها الإرساليات دورًا كبيرًا في إيجاد هذا التوتر الذهني والنفسي، والجنوح للعنف والتمرد وعدم الثقة بين المواطنين في القارة الإفريقية كلها.

لقد دمرت الثقافة الكنسية المجتمعات الإفريقية بقضائها على ركائز هذه المجتمعات، من عادات ونظم وتقاليد، ممثلة في ظاهرة الأسرة المتشعبة وعادات الزواج، وتعدد الزوجات وغيرها. وحلت محلها عقيدة الأوربي، القائمة على الاعتراف والخطيئة الأولى والثانية وتحريم تعدد الزوجات، مما أدى إلى إخلال بالتوازن النفسي، وانهيار التعاون الاقتصادي، وإخلال بالنمو السكاني، في بلاد تصل فيها نسبة موت الأطفال إلى ٢٠%[٢٩]. كذلك عمدت الكنيسة الأوروبية إلى قمع اللغة العربية، وإبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي في كتابة اللغة السواحلية والهوسا وغيرها، لفصلها عن جذورها

العربية كما فعلوا في جبال النوبا بمنعهم استخدام اللغة العربية، وكتابة اللهجات المحلية بالحروف اللاتينية. ولا يمكن أن يمضي الإفريقي إلى الأبد مستخدمًا البرتغالية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية في التخاطب متجاهلاً اللغة العربية التي تمتد جذورها في تربة القارة آلاف السنين(٣٠).

وبعد ما جرى للنصرانية من تحريف وتبديل وتغيير، لا يمكن نسبة طقوس النصرانية الأوربية المعاصرة ومعاييرها إلى المسيح ابن مريم عليه السلام، إذ إن شخصية المسيح في نظرهم نمت في الغرب وضاعت وسط ركام الفلسفة الإغريقية الرومانية. وبالمنطق ذاته يقوم الأفارقة بصياغة نصرانية جديدة وفق مزاجهم الإفريقي، ولكن حينما شرع رئيس الأساقفة "عموانيل ميلينجو" رئيس أساقفة لوساكا عاصمة زامبيا، في نحت مسيح إفريقي، فيما يعرف بأفرقة المسيحية تصدى له الفاتيكان واستدعاه لروما، لغسل دماغه، ولكنه ثبت على دينه فأعلن الفاتيكان أنه أصبح مرتدًا. وقد ذكر في كتاب له: "إن محاولة إقناعي بأن سلامة عقيدتي المسيحية لا تتم إلا بتبني الحضارة والثقافة الأوربية، لهى بمثابة إكراهي على تغيير شخصيتي بالقوة، وإذا جاز أن الله قد أخطأ بأن خلقني أفريقيًا - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - فإن ذلك لم يتضح لي"(٣١).

وقد أخذت حركة الكنيسة الجديدة التي تزعمها القس ميلينجو في التمدد والاتساع محتلاً مواقع الكنيسة الكاثوليكية على نحو يهدد باستئصال الكاثوليكية في إفريقيا.

لقد استند بناء الرجل الأبيض في إفريقيا إلى دعامتين: الأولى جيش الاحتلال لفرض إرادته الاستعمارية، والثانية الإرساليات لفرض ثقافته. وقد أخطأت الكنيسة في قراءة تطور أوضاع إفريقيا فيما بعد الحرب

العالمية، إذ ظنت أن الاحتلال الأوربي، سيخلد في إفريقيا إلى الأبد. لذا، بدلاً من أن تسهم الكنيسة في تغذية حركات التحرر بالمدد الروحي والفكري، شغلت نفسها بالتمكين للحكم الأجنبي، وإطالة بقائه، وفي المقابل أدانت حركات التحرر[٣٢].

ويحفظ الأفارقة للبابا جون الثالث عشر موقفه في عام ١٩٦٥م عندما رفض أن يقابل وفدًا يمثل حركة تحرير أنجولا. وبعد ضغوط وافق البابا على مقابلة قيادات حركات تحرير أنجولا، وموزمبيق، وغينيا باعتبارهم نصارى وكاثوليك، لا بصفتهم قادة لحركات سياسية تحررية، وكانوا في نظر الإعلام الكنسي مجرد عصاة خارجين على السلطة الشرعية. ولم يظهر الفاتيكان أي توجهات ترضي تطلعات قادة الكنائس الإفريقية حول قضايا التحرير في المستعمرات البرتغالية. وقال الرئيس الموزمبيقي السابق في عام ١٩٧٧م: "لقد قررنا وضع حد نهائي لكل المعتقدات الدينية كما منعنا تلقين الأطفال وكذلك الكبار مبادئ المسيحية في العطلات العامة"[٣٣].

وهكذا انتهت أسطورة أن الكنيسة وحدها تملك مفاتيح الخلاص في إفريقيا ما وراء الصحراء، حيث تعددت الأناجيل من ليبرالية ومادية، وأناجيل الأنبياء الإفريقيين المحلية وغيرها. لقد تمزق النسيج الكنسي الذي قام على تضحيات المنصرين والقساوسة في إفريقيا الذين جاءوا في شكل معلمين ومكتشفين وأطباء. حيث فقد أكثرهم حياتهم في دهاليز القارة السمراء ومجاهلها[٣٤].

وإن تشعب الفكر الكنسي وتعقيداته وغربته جعل اليوم أهل كل بيئة إفريقية يأخذون ما يوافق هواهم، وقد تكاثرت الكنائس الإفريقية حتى وصلت إلى سبعة آلاف كنيسة لا تكاد تجمع بينها رابطة فكر أو تنظيم، وهذا ملموس في منطقة جبال النوبا وجنوب السودان حيث تعدد الكنائس والمذاهب، ولايكاد يجمع بينها شيء سوى العداوة

المشتركة للإسلام والمسلمين. وتمارس هذه الكنائس مختلف أنواع الطقوس التي يتصل بعضها بالسحر، وبعضها بالعبادة التقليدية والطب الروحي والرقصات الشعبية المختلفة. وهذه الكنائس التقليدية بطقوسها الخاوية روحيًا لم تلب احتياجات بعض مواطني المنطقة. فأدى هذا إلى نفور بعض الناس منها، مع كونهم نصارى، ولم يدخلوا في الإسلام. ومع ذلك حرصت الكنيسة على إبقائهم على هذه الصورة وعدم مطالبتهم بالتكاليف النصرانية، خوفًا من زيادة نفورهم ودخولهم في الإسلام[٣٥]. وتكررت هذه المشاهد في بقية أجزاء إفريقيا الأخرى. فمثلاً في غانا برزت ظاهرة نفور كبار القوم من الكنائس التقليدية الكبيرة المعروفة، وكذلك فإن كثيرًا من الأفارقة على مستوى الرؤساء وقادة الكنائس، يقبلون على الإسلام، ففي الجابون، أسلم الرئيس السابق [٣٦]. وفي تنزانيا أسلم عدد من التنزانيين من بينهم ٢٣ قسيسًا[٣٧]. وحدث مثل ذلك في السودان.

وقد أوردت مجلة الدعوة السعودية بعض البيانات والإحصاءات عن عملية تحول الوثنيين إلى الإسلام في إفريقيا بأنها تزيد على التحول الوثني إلى النصرانية بنسبة ٢: ١ لصالح الإسلام. ويقول الشيخ "سبكي سيلا" مدير مركز الإشعاع الإسلامي بداكار بالسنغال: "إن المستقبل في إفريقيا للإسلام بإذن الله"[٣٨].

وفي تنزانيا أيضًا انتقلت عائلة الرئيس التنزاني السابق جوليوس نايريري الكاثوليكي إلى الإسلام. وأما زائير التي تعتبر أكبر قطر إفريقي كاثوليكي، فإن الكاثوليكية فيه تتعرض إلى امتحان عسير على يد الرئيس الزائيري السابق الذي لم تقبل عقليته منهج الكاثوليك المتطرف الذي يطمس ثقافة الإفريقي، ويجرده من اسمه وعاداته باسم الثقافة الأوربية الوافدة[٣٩].

وفي هذا يقول الأستاذ عمار هلال: "إن ما يحدث حاليًا من نزعة الأفارقة لإثبات شخصيتهم الإفريقية الأصلية، يرجع في جذوره لإدراكهم بوجود نخبة من المتغربين الذين صنعهم الاستعمار والتنصير بين صفوفهم"(٤٠).

لقد أصاب الكنيسة قلق من ظاهرة نبذ النصرانية والتخلي عنها في السر والعلانية، ودفعت البابا بأن يعجل ببرنامج تسييس إفريقيا، إذ سجل البابا أول زيارة في تاريخ البابوية لإفريقيا في رحلته إلى أوغندا عام ١٩٦٩م، ثم تلا ذلك رحلة البابا بولس الثاني الذي كاد يكون قد جاب معظم إفريقيا، حيث زار في عام ١٩٨٠م كلاً من زائير والكنغو، وكينيا، وفولتا العليا، وساحل العاج. وفي عام ١٩٨٢م زار الجابون، وغينيا الاستوائية، ونيجيريا، وبنين. وفي عام ١٩٨٥م زار توجو، وساحل العاج، والكاميرون، وجمهورية إفريقيا الوسطى وزائير، وكينيا. وفي عام ١٩٨٨م، زار زيمبابوي، وموزمبيق، وبتسوانا، وليسوتو، وسوازيلاند، وجنوب إفريقيا مع أنها لم تكن في البرنامج(٤١).

وفي عام ١٩٩٠م، زار دولة تنزانيا وافتتح بعض الكنائس والمشروعات التنصيرية. وحضر احتفالات النصارى بمناسبة مرور مائة عام على دخول النصرانية تنزانيا، كما قام في عام ١٩٩١م بزيارة إلى السنغال وجامبيا وغينيا(٤٢).

وينطلق الفكر النصراني الآن في عداوته للإسلام وتعامله معه من منطلقات تاريخية قديمة تدخل في جملتها الأزمات الصليبية بحروبها وأبطالها ومعاركها ودعاياتها، وما خلفته تلك الحروب والأزمات من آثار بعد فشل الغرب وهزيمته فيها، فإن هذه الحروب قد أعطت الغرب صورة مشوهة عن الإسلام، وما زالت آثار هذه الصورة واستمرارها على العقلية الغربية، يجعلها متحيزة ضد الإسلام. وحينما جاء الاستعمار الحديث ومعه إرسالياته وكنائسه وأفكاره، جاءت هذه الإرساليات النصرانية معبأة بالأدب

النصراني الداعي إلى تدمير الإسلام، واقتلاع مجتمعاته، والقضاء عليه عقيدة وشريعة. ولكن بعد كل الذي فعلته الإرساليات النصرانية في المجتمعات الإسلامية فإنها عجزت عن تحقيق البديل النصراني. لقد حققت الإرساليات بعض النجاح في تدمير صورة الإسلام، وإيجاد حالة لا هي إسلامية ولاهي نصرانية. ومثال ذلك الوضع في جبال النوبا وجنوب السودان وغيرها من المناطق التي ابتليت بالوجود الكنسي، إذ دمرت الإرساليات الثقافة والأعراق المحلية وصدت عن الإسلام، ولكنها فشلت في إقامة إنسان صليبي ، ومجتمع صليبي، وحضارة صليبية، مما جعل التكوين العقلي لهذه المناطق رهينًا للتوترات العقلية والنفسية والصراعات الذهنية. حيث إن الثقافة الغربية الكنسية اجتاحت العقلية الإفريقية من جذورها دون أن يكون في طاقتها إعطاء البديل الروحي المناسب.

لقد أدت الدعاية النصرانية إلى مزيد من التوتر في العلاقات العرقية والثقافية والدينية، مما أدى إلى تصاعد الصراع وانقسام الصفوة وتفتيتها، وأصبحت المساهمة المرئية للفكر الكنسي، تتمثل في ظاهرة انعدام الثقة والخوف والمواجهة بين الشمال والجنوب.

إن الكنيسة تضمحل بحكم تشعب فكرها العقدي والديني وتعقيداته الشديدة الصعوبة، ولأنها لا تملك الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الناس حول أمور العقائد والدين بصفة عامة، وإقناعهم بفكرها المعقد، مثلما يجيب عن ذلك الإسلام بكل وضوح وبساطة. كما أن الإسلام في وسعه منح الإنسان المعاصر إجابات لقضاياه وأزماته الفكرية والروحية. إن إفريقيا أكثر انتماءً لمجال الثقافة الإسلامية، حيث يرمز الإسلام للحقيقة في شكل مبسطٍ ومفهومٍ ومحببٍ للذهنية الإفريقية.

المبحث الثالث
التأثير الاجتماعي

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية وآداب سلوكية، وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد، كانت ولا تزال هدفًا لأعداء الإسلام والمسلمين. فبالسيطرة عليها أو تغريبها، يستطيع الأعداء أن يسودوا المجتمعات الإسلامية، وأن يغرسوا في نفوس الناس ما شاءوا من قيم وآداب وأعراف وعادات. وإذا أفلحوا في ذلك استطاعوا بأيسر مجهود، أن يقتلعوا من نفوس الناس القيم الإسلامية، والآداب القرآنية، وكل فضيلة دعا إليها الإسلام.

و كان لحركة التنصير والمنصرين التي اجتاحت مناطق متعددة من العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة، القدح المعلى في هذا المجال، أي مجال التغريب والإفساد الاجتماعي. فنشاط المنصرين في أوساط المجتمعات الإسلامية، لم يجعلهم نصارى تمامًا كما كان يريد لهم المنصرون، إذ لم يتنصر إلا العدد القليل منهم. ولكنه ترك آثارًا سيئة في نواحي المجتمع المختلفة، تظهر جلية في جانب المرأة والأخلاق، والعادات والسلوك، وتماسك المجتمع.

التأثير الاجتماعي في جانب المرأة:

المرأة باعتبارها نصف المجتمع، والشريحة الهامة منه. بل هي في الحقيقة مدار الحياة الاجتماعية في كل مجتمع إنساني، أصبحت هدفًا أساسًا للمنصرين وحملاتهم المغرضة. لأن الوصول إليها بالأفكار الغربية المشوهة، هو وصول إلى الأسرة بأسرها. فلذلك أنشأ النصارى جمعية الشابات النصرانيات وغيرها من الجمعيات النسائية المختلفة. وعندها خرجت المرأة المسلمة من عتبة دارها وخرجت إلى التبرج، وإظهار زينتها، بعد أن خلعت حجابها، وسارت في ركاب الحضارة الغربية الخاوية. لقد استجابت المرأة المسلمة -مع الأسف الشديد- للدعايات التنصيرية الهدامة. فقد ظل المنصرون منذ زمن طويل

يهدفون إلى الهجوم على هذا المعقل الحصين في الإسلام، فزعموا أن المرأة المسلمة متأخرة، وأنها لا تتحرر إلا إذا دخلت في النصرانية. ثم إنهم يزعمون أن الدين الإسلامي نفسه مصدر ألم المرأة المسلمة، حيث إنها تتألم طبيعيًا وروحيًا وعقليًا، إنها تخاف من زوجها، ومن الموت، ومن الطلاق[٤٣].

ولعل جهل المرأة بدينها، وجهل المجتمعات التي تعيش فيها أدى إلى تأثرها بهذه الافتراءات والشائعات الكاذبة والدعايات المضادة.

لقد اقترنت الهجمة الصليبية الماكرة على العالم الإسلامي بتخطيط لغزو فكري، يستهدف إيمان الأمة وإسلامها. فقد كان رجال الكنيسة في أوروبا والبابوات هم المحرضين على الحروب الصليبية التي استهدفت بيت المقدس وعقيدة المسلمين. ولما فشلت هذه الحروب في القضاء على الإسلام وإبادة أهله جاء الاستعمار الحديث والتنصير بديلاً عنها، وكذلك لم ينجح في تنصير المسلمين، حيث بدا لهم أن الأمر في غاية الصعوبة. فكان لابد من إيجاد البديل عن التنصير لإخراج هذه الأمة من دينها وإبعادها عن عقيدتها فكان البديل هو التغريب أو التغيير الاجتماعي[٤٤]، الذي يؤدي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم بل إلى ردتهم الدينية.

تأثير التنصير في تماسك المجتمع:

أوجد التنصير مشكلات اجتماعية سلبية في مجتمع النوبا ذلك المجتمع المتماسك حتى في زمن الوثنية الذي ولى. فقد عمد المنصرون إلى إيجاد الشقاق والكراهية بين أبناء المنطقة. فصار النصراني والوثني يحقدان على المسلم حقداً دفيناً وكراهية ويكيدان له كل الكيد. كما كان من آثاره إثارة النعرات العنصرية والقبلية ضد العناصر العربية المسلمة التي تقطن في المنطقة. ويصور العربي المسلم صورة مشوهة تضخم الممارسات السلبية في حق الإنسان النوباوي

الإفريقي الأسود، ومخاطبة العبودية فيه بتصوير العربي المسلم في صورة المستعمر الذي جاء ليستعبد أهل المنطقة الأفارقة السود.

ومن الأمثلة الشاهدة على ذلك ما تمارسه الكنائس الآن عن طريق أنصارها من زعزعة للأمن وبذر بذور الفرقة والشتات والفتنة، فقد أولت الكنائس في المنطقة لأحد أنصارها مهمة توهين الوشائج بين النوبا والعرب وتمزيق العلاقة بينهم، وربط النوبا بالجنوبيين من حيث الإفريقية. وحركات التمرد التي أنشأتها وغذتها الكنيسة ترى أن تجربة زنجبار في تصفية العنصر العربي والإسلامي هي أمثل طريقة تستخدم في جبال النوبا، لتصفية العنصر الإسلامي العربي من أبناء الجبال[٤٥].

واليوم تطالب هذه الحركات النصرانية المتمردة بإقامة دولة منفصلة لها تضم إقليم جنوب السودان، ومنطقة جبال النوبا وجنوب النيل الأزرق، لإعلانها دولة إفريقية نصرانية، بدعم وتحريض من الإمبريالية العالمية والكنيسة الدولية.

كما عمد المنصرون إلى إيهام النصراني، بأنه من أرقى الطبقات إذ يمارسون التمييز بين الأهالي بسبب المعتقدات بتربيتهم اجتماعيًا على النحو التالي:

أولاً: النصراني، ثانيًا الوثني، ثالثًا المسلم. ومع هذا فإن الكنيسة في إفريقيا تضع النوباوي النصراني في أدنى الدرجات، ولكنه الخداع والتضليل الذي تمارسه الكنيسة لكسب مؤيدين لها. فمن الناحية الاجتماعية تضع الكنيسة النوباوي في أدنى السلم النصراني، وتقدم عليه الجنوبي والإريتري، وقلما يصل النوباوي إلى رتبة مطران أو نحوها. وتنظر الكنيسة إلى النوبا على أنهم قوم سيسلمون لقربهم من المؤثرات العربية والإسلامية[٤٦].

كذلك تعمل الكنيسة على تمكين جو العزلة للنصارى وعدم إتاحة الفرصة لهم للاختلاط بالمسلمين، والتعرف

عليهم من كثب، والتعرف على دينهم خشية إسلامهم. وهذه العزلة هدفها تقوية الروابط بين النصارى لذلك لجأت الكنيسة لإنشاء الجمعيات الثقافية والاجتماعية، وروابط الشباب والأندية وتوفيرها للنصارى، والمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم المحببة إليهم ولو كانت في ظاهرها تتعارض مع مبادئ النصرانية، مثل شرب الخمر، والاعتقاد في الكجور، وتربية الخنزير واللباس القصير الذي يظهر مفاتن المرأة. كما تحرص الكنيسة على إقامة الزواج للنصارى داخل الكنائس.

التأثير الاجتماعي في جانب الأخلاق والسلوك:

ومن آثار التنصير السيئة والمدمرة في المجتمع إشاعة الاختلاط بين الجنسين في كل مرافق الكنيسة، في مدارسها، وصلواتها ومعابدها، واحتفالاتها، ومهرجاناتها، التي تقيمها على مسمع ومرأى من الناس وفي الأماكن العامة، بحيث يجتمع إليها الناس، وقد يحضرها حتى المسلمون أنفسهم في بعض المناطق. وهذا الأمر جعل ظاهرة الاختلاط واللبس القصير عند الفتيات أمرًا مألوفًا في المنطقة فسرى شره في غير النصارى من أبناء المجتمع، مسلمين كانوا أم وثنيين. إذ لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح الاختلاط بين البنين والبنات في أكثر معاهد التعليم وفي أغلب نواحي الحياة الاجتماعية أمرًا مسلمًا به.

وما داهية اختلاط النساء بالرجال، إلا واحدة من حلقات المخطط التنصيري العالمي الرهيب، المعادي للإسلام والمسلمين، يحاول بها العدو أن يقضي على رجولة الرجال وأنوثة النساء، ويصل من وراء ذلك إلى إشاعة التخنث والميوعة والتفاهة في الرجال، وفي المقابل إشاعة الترجل والتهتك والعري في النساء. فتنسلخ شخصية المسلمة من دينها، وتندفع على غير وعي وهدى إلى تقليد الأوربيين في هذه الدواهي التي يحرّمها الإسلام

وتخالف روحه ونصوصه[٤٧].

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة بسب هذا الاختلاط، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع، تحاد الدين وتضاده. أو تتنافى مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال. وهو السبب أيضًا وراء ظاهرة الجنوح والانحراف، واحتراف الحرف المخلة بالآداب والمنافية للشرف والأمانة.

أما عن الكنيسة ذاتها فحدث ولا حرج عما ينتج عن حفلات الاختلاط التي تقيمها الكنائس في المنطقة، كما يحدث في كنائس قرية الأزرق بريفي هيبان، إذ نتج عن هذا الاختلاط كثير من حوادث الحمل سفاحًا، بل إن هذه الحوادث أمر شائع على امتداد منطقة هيبان.

تأثير التنصير فى استقرار المجتمع:

ومن أسوأ آثار التنصير الاجتماعية، إدخال معظم النصارى في المنطقة تحت مظلة التمرد ، وما أدى إليه التمرد من قتل وتشريد ونهب وأخذ لحق الغير ظلماً وبغير حق، وتدمير للمؤسسات والمنشآت الاقتصادية والاجتماعية، وإفساد للبلاد والعباد. فترك أثرًا اجتماعيًا لا مثيل له، وما لحق بالمجتمع النوباوي من فرقة وشتات بالإضافة إلى الوقيعة التي وقعت بين العنصرين العربي والنوباوي.

وكانت نتائج هذا التمرد في السنوات الفائتة وما أصاب المنطقة من خراب ودمار كالآتي:

١- النازحون الذين تركوا ديارهم ومساكنهم مائتا ألف نازح.

٢- القرى التي هجرها المواطنون خمسون قرية.

٣- المدارس الابتدائية التي تعطلت خمسون مدرسة. والمدارس المتوسطة التي توقفت خمس مدارس، وفصول محو الأمية التي تعطلت أيضًا اثنان وخمسون فصلاً.

٤- التلاميذ الذين شردوا اثنا عشر ألف تلميذ.

٥- المساجد التي أحرقت مائة وخمسون مسجدًا.

٦- السيارات التي دمرت بالألغام والحرق خمس وعشرون سيارة.

٧- الماشية التي تم نهبها خمسة عشر ألف رأس من البقر وستة آلاف رأس من الماعز، وثلاثة آلاف رأس من الإبل.

٨- الأطفال اليتامى ثلاثة آلاف طفل.

٩- الشهداء من المواطنين الأبرياء فقط أربع مائة وخمسون شهيدًا.

ويقول الشيخ كافئ طيارة[٤٨]: "إن الكنائس هي السبب الرئيس في التمرد في المنطقة، وخاصة منطقة "شاد الدمام" و "حجر الدبيب" و "هيبان" و"أم دورين". وقال: "إنه كان هناك قس فرنسي "خواجه" في المنطقة يقوم بعملية تهريب المقاتلين، وكان القس "الخواجة" يعطي مبلغًا من المال للشخص المرشح للخروج، ويحثه على اللحاق بالمتمردين. كما تم تجنيد عدد من الأفراد في الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم، ليتدربوا على حمل السلاح".

ومن المعروف أن حركة التمرد عالمية المقصد، وهي أساسًا ضد المد الإسلامي. ولذا نجد أن التمرد، قد وجد أرضًا خصبة ومناخًا طيبًا في جنوب السودان، ومناطق جبال النوبا عمومًا، حيث احتضن مواطنو المناطق النصرانية قادةَ التمرد، ووفروا لهم المعلومات والحماية والغذاء، وسعوا بين الشباب والأقوياء من الرجال لتجنيدهم ونشر أفكار التمرد بينهم. ويلاحظ في كل جبال النوبا أن التمرد بدأ في المناطق التي بها كثافة عالية من النصارى مثل:

١- أم دورين.

٢- هيبان.

٣- جميع قرى ومناطق الريف الجنوبي من كادوقلي "كاتشا - تبانيا - أندولو والمساكين".

٤- المناطق الجنوبية من الكوليب "أبيض - عبري - دري" وهي

المناطق التي بدأ فيها التمرد أولاً بمحافظة الدلنج[٤٩].

وقد قام التمرد بأبشع الممارسات في المنطقة. إذ قام باختطاف واغتيال عدد من قادة العمل الإسلامي وزعمائه في القرى ومنهم أئمة المساجد والمؤذنون، وزعماء القبائل من العمد والمكوك (*) والشيوخ المسلمين. وذلك لإثارة الفزع والرعب وإدخاله في نفوس الآخرين، حتى يرجعوا عن الإسلام. وكان أيضًا من تلك الممارسات إدخال أفكار التمرد للنصارى داخل الكنائس أيام الأحد، حيث يجتمع أعداد كبيرة جدًا من الجنسين داخل الكنائس، ويتم بث هذه الأفكار وعرض بعض الأفلام عن تعذيب البيض للزنوج في جنوب أفريقيا ويدعون أن هؤلاء يعذبون لإجبارهم على الدخول في الإسلام[٥٠].

كما يتم إخفاء قادة التمرد داخل الكنائس، حيث تنعقد الاجتماعات السرية، ويتم رسم الخطط لاختطاف المسلمين، والهجوم على القرى التي بها بعض المواطنين من العناصر العربية، مثل قرى "أم برمبيطة ودلامي وكوكاية". كما استخدمت وسائل النقل الخاصة بهذه الكنائس لتحركات قادة التمرد داخل المنطقة مثل "جرار القس فضل بمنطقة القنى والذي وُضِع تحت تصرف المتمرد الأمين أبو سدر". وقد استخدمت أبشع الوسائل لتعذيب المسلمين بحجة أنهم يقفون ضد هذا التيار[٥١]. وكان من هذه الوسائل:

١- ذبح إمام مسجد كوكاية أمام المصلين.

٢- سبي النساء وتجريدهن من الملبوسات.

٣- كيُّ من يقع في أيديهم وحرقهم.

إلى غير ذلك من الممارسات غير الإنسانية التي تنم عن غيظ وحقد دفين تجاه المسلمين، وتنفذها الكنائس من خلال عملائها وربائبها المتمردين.

تمر الكنيسة السودانية في وقتها الحاضر بمنعطف تاريخي خطير جعلها تتنكب عن أداء دورها وتبليغ

(*) المكوك: جمع مك ويطلق على زعيم القبيلة.

رسالتها وتنصرف إلى العمل السياسي المحض ضد شعب السودان المسلم، وضد أمنه ومؤسساته العسكرية. كما أنها أخذت تروج الإشاعات الخطيرة الضارة بسلامة المجتمع وتماسكه، واصمة إياه بممارسة الرق(*)، وهي الهيئة المسؤولة التي يساندها آلاف المنصرين المنتشرين في أنحاء البلاد، وتعرف تمامًا ما يجري داخل المجتمع السوداني. كما تعلم أن مسألة الرق هذه لا تعدو أن تكون فرية كاذبة لا أساس لها من الصحة. وعندما تسعى الكنيسة إلى ترويج الأكاذيب، وتفقد القدرة على النطق بالحق، فإنها لا تعود مؤسسة روحية، ولا يتأتى لها أن تقود المجتمع نحو القيم السامية والتماسك الخلقي، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وهل كانت رسالة الكنيسة الأساسية ووجودها على أرض السودان، وبين شعبه الطيب الذي منحها حرية العمل، والذي ينفحها بالامتيازات، أن تنفخ هى في العالم أن يهب لمعاقبة السودان ومحاصرته بدلاً من نجدته ؟ ففي منتصف يوليو ١٩٨٨م، قام القس مكرم ماكس أسقف كنيسة الأُبَيِّض بجولة في الولايات المتحدة الأمريكية، داعيًا إلى معاقبة السودان بفرض عقوبات اقتصادية عالمية، وأهاب بالغرب الذي توقف عن إعانة السودان عسكريًا أن يكثف من ضغوطه على الدول الإسلامية كي تكف عن دعم السودان عسكريًا. وأشار إلى أن الحكومة السودانية مقبلة

(*) وهي مزاعم نشرها أستاذان في جامعة الخرطوم من طائفة اليسار حول ممارسة الرق في السودان، فكانت بمثابة هدية وقعت بردا وسلاما على الكنيسة. وقد استندت تلك المزاعم إلى نزاع قبلي معروف بين الدينكا وقبائل جنوب كردفان، فصورته على غير حقيقته، وأصبح الموضوع في قائمة جدول أعمال مجلس الكنائس السوداني،وهو يتأهب للمشاركة في اجتماع مجلس عموم كنائس إفريقيا، المنعقد في لومي عاصمة توجو في الثاني من ديسمبر ١٩٨٧م فأوردت مذكرة المجلس أن السودان يمارس نظام العبودية، في تحد تام لقواعد السودان وحقوق الإنسان. وورد في ورقة رسمية بعنوان ((إنقاذ السودان)) مايلي : ((المناداة بضرورة إيجاد السودان الجديد الخالي من السيطرة العربية)) ودعت الورقة مجلس الكنائس الإفريقي والعالمي إلى الإسهام في إيجاد هذا السودان الجديد. راجع المشروع التنصيري في السودان، ص١٢٨.

على سن تشريعات تمنع غير المسلمين من تولى المناصب العامة في الدولة، وأن الحكومة قد عقدت صفقة سرية لإحلال وكالات إسلامية محل وكالات الإغاثة الغربية[٥٢].

بعدها أخذت حركة تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان بعدًا عالميًا، حينما أصبحت واحدة من القضايا المثارة في أروقة مؤتمر لامبث العالمي في بريطانيا، في يوليو عام ١٩٨٨م[٥٣]، حيث صدرت ثلاث توصيات بشأن السودان، من أصل التوصيات السبع الصادرة في حق العالم الإسلامي. الأولى تعلقت فيما أسماه المؤتمر بظاهرة بروز الأصولية الإسلامية. حيث ذكر أن الانبعاث الإسلامي أدى إلى خرق فاضح لحقوق الإنسان الأساسية، وأن هذا الإسلام الأصولي مسؤول عن ظاهرة تدمير الكنائس في نيجيريا والسودان.

وحثت التوصية الثانية حكومة السودان، على التفاوض مع المتمردين، بواسطة طرف ثالث كمجلس الكنائس العالمي أو الإفريقي. كما أبدت التوصية الثالثة قلقها المتزايد بشأن اتجاه حكومة السودان لإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية، وفرضها على شعب السودان، وحثت التوصية الحكومة على إعادة النظر في قرارها، حتى تحل محل الشريعة قوانين أكثر إنسانية في معاقبة المجرمين على حد قولهم[٥٤]. وهذا هو دأب الكنيسة: المحاربة الصريحة الواضحة للإسلام وأهله وشرائعه ومعتقداته، والتدخل السافر في شؤون الدول ومحاولة التحكم في مصيرها، وخاصة في إفريقيا، إذ يلهث المنصرون وراء دقائق الحياة السياسية، واستغلال المجتمع الإفريقي. وما تزال في حلوق الأفارقة غصة من تجارة الرقيق، وما زالت ذكرياتها عالقة بأذهانهم، وهم يسترجعون تاريخ القرن التاسع عشر، حينما كانت سفن الرجل الأبيض تتنافس في تصدير الرقيق الإفريقي الرخيص، وقبل إجراء الشحن يتم تعميد العبيد الأفريقيين بإضفاء أسماء

أوربية عليهم، دلالة على الامتنان والإنسانية، وتعبيرًا عن مشاعر حب الكنيسة لهؤلاء البؤساء. ومع هذا لاتستحي الكنيسة من أن تصف المجتمع الإسلامي بالرق. وهي التي بممارساتها غير الإنسانية زادت من شقاء الإنسان الإفريقي الذي اجتيحت هويته بعد أن ضاعت منه أرضه. وما تزال الكنيسة تبشر بإنجيل السلام، وتدير الخد الأيسر لصفعات الرجل الأبيض في جنوب إفريقيا وغيرها.

وحتى يومنا هذا، ما تزال هناك بعض الكنائس تحاول مستميتةً الدفاع عن سياسات التمييز العرقي واللوني على قواعد نصرانية، منطلقين من القصة الواردة في العهد القديم، التي ورد فيها أن حاما نظر إلى عورة أبيه نوح السكير وضحك، وحينما علم نوح بذلك دعا على ابنه حام قائلاً عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: "مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدًا لهم"(٥٥). وهكذا ينص العهد القديم المحرف على أن الأفارقة جلبوا بلعنة نوح ليكونوا عبيدًا للأوربيين والساميين.

وما تزال هذه النظرة للأفارقة قابعة في أذهان الأوربيين، فقد عمل في جنوب السودان وجبال النوبا آلاف الأوربيين، تجارًا وموظفين وجنودًا ومنصرين ومغامرين وسياحًا. ومات بعضهم ودفن هناك، وكَوَّن بعضهم ثرواتهم هناك، ولكننا لم نسمع أن أحدًا منهم تزوج بامرأة نوباوية أو جنوبية، أو أي امرأة من القبائل الإفريقية الأخرى مع أن كثيراً منهم اتخذوا من الإفريقيات خليلات، ولكنهم لم يرتقوا بهن إلى مرقى الزوجية، لقد كان بعضهم يهجر الخليلة، بعد أن ينجب منها عدة أطفال ويتركها دونما مالٍ أو أمل.

إنه من الصعب اتهام المسلمين بالعرقية والعنصرية(*)، وما تقوم به

(*) اتهمت بعض الجهات الغربية والنصرانية السودان باضطهاد النصارى.ونشرت تقارير عن معاناة النصارى في جبال النوبا:.وصحيفة الحياة ص ١٥ العدد ((١١٢٩٠)) بتاريخ ٢ شعبان ١٤١٤هـ، كما شاعت اتهامات غربية

الكنيسة من إطلاق للدعايات والإشاعات المضادة للإسلام والمسلمين لا أساس له من الصحة، ولا يجد له مكانًا بين المسلمين، لأن المسلمين في السودان كانوا نتاجًا لزيجات العرب المسلمين بالأفارقة، ومن خلال اختلاط القبائل العربية المهاجرة مع أهل البلاد وبشكل تلقائي دون إكراه أو عنف. ولهذا فإن التكالب الإرسالي، على مناطق جبال النوبا وجنوب السودان، لن تجني منه هذه المناطق أي خير، سوى زيادة التخلف والدمار.

وحقًا فإن ما يعانيه السودان اليوم، من ويلات حرب أهلية تدور رحاها في جنوب البلاد، وفي منطقة جبال النوبا، إنما كان أثرًا مباشرًا من آثار التنصير، ومن ورائه الاستعمار الغاشم. كما أن ما يعانيه السودان اليوم، من مشكلات اجتماعية واقتصادية ونعرات عنصرية وقبلية تفت في عضده، إنما كان نتيجةً حتمية لسموم النصارى التي نفثوها في جسمه، في غفلة من أهله وفي غفلة من أبناء الأمة الإسلامية، في عهد من عهود التيه والضياع، التي مرت بها الأمة.

إن أمتنا في معظم البلاد الإسلامية مافتئت ترسف في أغلال التبعية، في أخطر وأجل ما ينبغي أن تستقل به أمة وتتميز به عما عداها، وهو الفكر والتشريع والأخلاق والسلوك والتربية والتعليم، وما يتبعها من مناهج وكتب وغيرها من حصاد الغزو الفكري وثمرات الانقلاب الاجتماعي، الذي تمّ على أيدي الكفار ومن خلفهم الطبقة البديلة.

وإذا كانت الأمم تحرص على استقلالها الفكري والاجتماعي، بدافع من العزة

ونصرانية للسودان بتطبيق سياسة التطهير العرقي في جبال النوبا: مجلة الوسط ص ٢٦، العدد (١٠٢) بتاريخ ١٩٩٤/١/١٠م - كما قام القس جورج كيري، كبير أساقفة كانتربيري بزيارة لمناطق التمرد في جنوب السودان وطالب في خطاب ألقاه في يوم ١٩٩٣/١٢/٣٠م الأمم المتحدة، بعمل شيء لوقف الجور الذي يمارسه السودان على أبناء النصارى، وإكراههم على الدخول في الإسلام حسب زعمه. مجلة المجتمع ص ٣١، العدد ١٠٨٣، بتاريخ ٢٩ رجب ١٤١٤هـ.

القومية والكرامة الوطنية أو غيرها من دعاوى الجاهلية، فإن المسألة عند الأمة الإسلامية تختلف تمامًا، لأن الاستقلال عندنا في هذه الأمور إنما هو قضية عقيدة ودين، ومسألة وجود ومصير، ومسؤولية رسالة ودعوة، وضرورة بعث وإنقاذ لأنفسنا وللعالمين، ثم هذه مهمة قيادة وهداية وتمكين لتعاليم الوحي الإلهي المشرق. وتمييز لها عن المناهج والنماذج البشرية التي سيطرت على الأرض وملأتها ضلالاً وإلحادًا، وعنادًا وفسادًا. والإسلام دينًا ومنهجًا، يأبى علينا كل الإباء التبعية. في كل مظاهرها، في التربية والتعليم، والمناهج والكتب، وإعداد المعلمين وفي كل جزء أو شطر من أسلوب حياتنا اليومية، وممارستنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل إن التبعية في ذلك تصبح خيانة لرسالتنا وجناية على أمتنا، وانحرافًا بالقافلة البشرية عن طريق ربها الواحد القهار.

ويزيد الأمور سوءا، الإصرار على السير على خط الكفار، وأسلوبهم في التوجيه المعنوي، في التربية والتعليم، والإعلام بمختلف أشكاله "صحافة وإذاعة وتلفازًا وغيرها" وفي مظهر التشريع. وهذه المظاهر تعتبر أهم آثار التنصير في إيجاد العلمانية والتغريب الاجتماعي. ومن ثم فإن على دعاة الإسلام وأصحاب المنهج الإسلامي أن يكونوا على تمام اليقظة والانتباه لطبيعة المرحلة التي يعيشون فيها، وطبيعة المعركة التي يخوضونها، وإنها معركة أشد فداحة وشراسة من معارك الكفاح والسلاح التي خاضتها أمتهم لتحصل على استقلالها الجزئي المحدود.

ومن هنا وجب ألا يضيعوا أوقاتهم في معارك جانبية، أو في محاولات الترقيع، وإنما يجب أن يلفتوا نظر أمتهم إلى واقعها الأليم ومصادمته للإسلام، وأن هذا أثر مباشر من آثار

التنصير والاستعمار الذي حاك خيوطه الكفار، ورسموا خطوطه عبر قرون من الحقد والتآمر والكيد للإسلام.ولا يجدي غير هذا السبيل في مواصلة استنفار عزائم أمتنا حتى تتخلص باسم الإسلام وتحت رايته، من أخطر ما منيت به من ألوان الاحتلال والغزو الفكري والعقدي، والذي يكفي في التدليل على فظاعته أنه ترك المسلمين كالمريض الذي فقد مناعته، وهزلت مقاومته، واختلط عليه أمره، فهو يتشفى بالداء، ويفر من الدواء، ويتعرض كل يوم لجديد من الوباء.

(الهوامش)

١- سورة المائدة آية (٧٢).
٢- سورة المائدة آية (٧٣).
٣- خرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: البخاري في الصحيح كتاب الانبياء ١٣٩/٤، وأخرجه مسلم برقم (٢٨) كتاب الإيمان،باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.
٤- علي حسن عبدالله: الحكم والإدارة في السودان ص٥٥.
٥- تعليم اللغة العربية في جبال النوبا ص١٤.
٦- نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان ص٢٣.
٧- المرجع السابق.
٨- حسب الله محمد أحمد: قصة الحضارة في السودان ص١٩٨.
٩- المرجع السابق.
١٠- الشاطر بصيلي عبدالجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط ص٣٦٦.
١١- عبدالمالك خلف التميمي: التبشير في منطقة الخليج العربي ص٤٧.
١٢- عبدالرزاق علي ديار بكري: تنصير المسلمين ص١١، ص١٤.
١٣- المرجع السابق ص٢١.
١٤- المرجع السابق ٢٣.
١٥- المرجع السابق ص١٤.
١٦- أحمد عبدالوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ص١٦-١٦١.
١٧- جونتاني فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ص٢٤٢.
١٨- المرجع السابق ص٢٤٣.
١٩- المرجع السابق: نفس الصفحة.
٢٠- حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ص٢٢٨.
٢١- المرجع نفسه ص٢٢١.
٢٢- مقابلة مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ١٤١٤/١/١٨هـ ص٦.
٢٣- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص١١٨.
٢٤- عمر فروخ ومصطفى خالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص٦٦.
٢٥- حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان ص١٤٠.
٢٦- صحيفة عكاظ ١٤١٢/٣/٢٥هـ صفحة الفكر الاسلامي.
٢٧- سيد أحمد يحيى: التنصير في القرن الأفريقي ومقاومته ص١١٤.
٢٨- الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام ص٢٦٢.
٢٩- حسن مكي: المشروع التنصيري ص١٣١-١٣٢.

٣٠- مجلة الدراسات الافريقية ص١١٣ عدد رجب ١٤٠٥.
٣١- حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ص١٣٢.
٣٢- مجلة الدعوة العدد ١٣٣١ ص٣٦ ٨/٢٤ /١٤١٤هـ.
٣٣- حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ١٣٣.
٣٤- في السودان وحده مات ٢٢ منصرًا في سنة واحدة وفي ١٤ عامًا توفي ٦٤شخصاً. فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية ص٢٣٤.
٣٥- ونسي محمد خير مدرس بالمركز الإسلامي الإفريقي بالسودان.
٣٦- حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ص١٣٤.
٣٧- صرح بذلك لمجلة الدعوة أبوبكر موابو الذي أسلم بعد أن كان من بطارقة الكنيسة في تنزانيا.
٣٨- مجلة الدعوة العدد ١٣٣١ ص٢٦-٢٧.
٣٩- حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ص١٣٢.
٤٠- صحيفة عكاظ ١٤١٢/٣/٢٥هـ.
٤١- حسن مكي: المشروع التنصيري ص١٣٤.
٤٢- مجلة الدعوة ١٣٣١ ص٣٥ ١٤١٢/٨/٢٤هـ.
٤٣- سيد أحمد يحيى: التنصير في القرن الافريقي ومقاومته ص١٢٨.
٤٤- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ٢٧٧.
٤٥- الشيخ الحمدابي: في مقابلة معه بتاريخ ١٤١٣/١٢/١٣هـ.
٤٦- المرجع نفسه.
٤٧- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص١٢٦.
٤٨- الشيخ كافئ طيارة عمدة شاد الدمام في مقابلة بتاريخ ١٤١٣/١١/٢٨هـ.
٤٩- تقرير منظمة الدعوة الإسلامية ١٤١٣/٩/٢٣هـ.
٥٠- المرجع السابق.
٥١- المرجع السابق.
٥٢- حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان ص١٢٨.
٥٣- هو مؤتمر كنسي يعقد كل عشر سنوات تحت رئاسة رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية، ويحضره كل قادة المذهب الإنجليكاني على مستوى العالم، وللمؤتمر أهمية سياسية وفكرية نظرًا لأثر الكنيسة على السياسة في بريطانيا وأمريكا وكندا وأستراليا انظر المرجع السابق ص١٢٨.
٥٤- المرجع السابق ص١٢٨-١٢٩.
٥٥- المرجع السابق ص١٣٨ نقلاً عن العهد القديم، الاصحاح التاسع، الفقرة قبل الأخيرة.

(المراجع)

١- القرءان الكريم.
٢- أحمد عبدالوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ط مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠١.
٣- البخاري محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح المكتبة الإسلامية / إستانبول / تركيا، ١٩٨١م.
٤- تعليم اللغة العربية في جبال النوبا: بحث مطبوع على الآلة الكاتبة، إعداد الدارسين بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨١م.
٥- جونتاني فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم ١٩٧٨م.
٦- حسب الله محمد أحمد: قصة الحضارة في السودان، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر، ١٩٨٧م.
٧- حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان، من منشورات دار البحوث والنشر بالمركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم، ١٤١١هـ.

٨- سيد أحمد يحيى: التنصير في القرن الأفريقي ومقاومته، دار العمير للثقافة والنشر، جدة، ١٤٠٦هـ.
٩- الشاطر بصيلي عبدالجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، من منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.
١٠- عبدالرزاق علي ديار بكري: تنصير المسلمين بحث في أخطر خطة وضعها مؤتمر كلورادو التنصيري - دار النفائس، الرياض، ١٤١٠هـ.
١١- عبدالمالك خلف التميمي: التبشير في منطقة الخليج العربي - الكويت، ١٩٨٢.
١٢- علي حسن عبدالله: الحكم والإدارة في السودان، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.
١٣- المجلس العلمي لجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، الرياض، ١٤٠١هـ.
١٤- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري صحيح مسلم دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٥- مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط٥ بيروت، ١٩٧٣م.
١٦- نعوم شقير جغرافية وتاريخ السودان ط٢ دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
١٧- صحيفة عكاظ السعودية، العدد الصادر في تاريخ ١٤١٢/٣/٢٥هـ.
١٨- مجلة الدعوة السعودية، أعداد متفرقة.